المحاضرة الأولى

النظرية في علم الاجتماع تعريفها وأنواعها وطابعها

مقدمة Mona ☺

يعتقد البعض أن **النظرية ما هي إلا فكرة أو تصور** أو حتى مجموعة أو إطار من التصورات ، ويظن البعض الآخر أن النظرية لا تختلف كثيراً عن **الفرض العلمي** أو تتكون من مجموعة من القضايا الشبيهة بهذا الفرض ، وقد نجد بعضا ثالثاً يعتبر النظرية بمثابة **مبدأ أو قانون** بينما يقرر بعض رابع أن النظرية تمثل **نموذجاً** أو تقترب من عملية صياغة الأنماط.

وهكذا قد يتجه الفهم الشائع لمفهوم النظرية بين رجل الشارع وحتى بين بعض المثقفين بعيداً عن المعنى الدقيق لمفهوم النظرية كما استخدم الآن خاصة في مجموعة النظم الفكرية المختلفة التي اكتسبت أخيراً لقب العلم، وكما يساعد على إزالة ذلك الخلط والتداخل بين مفهوم النظرية ومجموعة كبيرة من المفهومات وثيقة الصلة بها.

ويعين في نفس الوقت على تصحيح ذلك الفهم الخاطئ الذي قد يصاحب استخدام مفهوم النظرية في بعض الأحيان، وكان بعض الباحثين المهتمين بالنظرية قد انشغلوا في البحث عن تعريف محدد وواضح ودقيق للنظرية في أثناء محاولتهم لتأريخ النظرية في نطاق العلم عامة وعلم الاجتماع موضوع اهتمامنا على وجه الخصوص.

والذي أسهم من جانبه في **التعرف على حدود مفهوم النظرية وصلته بمجموعة المفهومات التي قد يختلط ويتداخل معها** ، وكذلك أسهم هذا الجهد في التمييز بين أنواع متباينة للنظرية والكشف عن طابع النظرية في العلم وفى علم الاجتماع فيما بعد.

أولاً :المفهومات وثيقة الصلة بمفهوم النظرية

إذا سلمنا بالرأي القائل **أن العلم ما هو إلا مجموعة من المعارف المنظمة التي تدور حول ميدان محدد**(الظواهر التي يهتم بدراستها) فالمتبع بين العلماء في مختلف النظم الفكرية – طبيعية واجتماعية – **هو الاستعانة بمجموعة من الوسائل تساعد في التوصل إلى هذه المعارف** المنظمة وكذلك الاعتماد على مجموعة من الأساليب في التعبير عن هذه المعارف المنظمة.

وإذا وافقنا على هذا الرأي **بأن المعارف المنظمة التي يهدف إليها كل نظام فكري في أي علم لا تختلف كثيراً عن النظريات،** فمن الملاحظ أن العلماء يستعينون بأساليب مثل المناهج والطرق والأدوات في التوصل إلى هذه النظريات وفى نفس الوقت يعتمدون على أساليب مثل **التصورات والمفهومات العلمية والمصطلحات والمسلمات والفروض والقوانين والنماذج في التعبير عن النظريات العلمية.**

ومن هنا ظهر **الارتباط الوثيق بين مفهوم النظرية ومجموعة المفهومات الأخرى مثل المصطلح العلمي والفرض والقانون** والنماذج إلى الحد الذي اختلط معه الأمر على البعض وكاد أن لا يرى اختلافاً بينهما، ومن هنا كان من الواجب التعمق في معرفة هذه المفاهيم على النحو التالي-:

١- المفهوم او المصطلح العلمي

لقد استخدم علم الاجتماع **مصطلحات شائعة** في لغة الحياة اليومية واعتبرها بمثابة مفهوماته الأساسية واستعان بها في التعبير عن جوهر تفكيره العلمي، **وتعتبر مفاهيم مثل الشخصية والثقافة والمجتمع المحلى والمجتمع والجماعة والأسرة والاتجاه والقيم مجرد أمثلة قليلة على المفهومات السوسيولوجية** والتي تختلف معانيها لدرجة كبيرة في استخدامات عالم الاجتماع عن استخدام رجل الشارع لها.

والمفهوم أو المصطلح أو التصور العلمي ومثاله إحدى الكلمات المشار إليها سلفا، يتكون من خلال:

١. عزل مجموعة محددة من الأحداث أو أنماط السلوك.
٢. ووصف خصائصها
٣. ومن ثم تلخيصها في معنى معين ممثلاً لهذه المجموعة من الأحداث أو الأنماط أو السمات في جملتها.

وبهذا تعتبر كل مجموعة جديدة من البيانات عزلت أو فصلت عن المجموعات الأخرى على أساس خصائص محددة بمثابة معطى أو إسما أو تسمية أو هي باختصار **مفهوم.**

(انتبهوا) ومن هنا يمكن تعريف المفهوم على انه: {تحديداً مختصراً لمجموعة من الحقائق أو اختصاراً لعدد من الأحداث أو الظواهر تحت عنوان عام واحد ، أو انعكاس لما يدور في فكرنا حول هذه الظواهر والأحداث والعمليات في صورة مبسطة.}

(انتبهوا) وتنقسم المفهومات إلى نوعين:

نوع بسيط يشير مباشرة إلى الموضوعات التي يختصرها مثل مفهومات **الكتب أو المنضدة أو السيارة.**

والنوع الآخر هو المفهومات المجردة :وهي التي لا تشير مباشرة إلى الموضوعات التي تختصرها مثل مفهومات **الإحباط والعدوان والدافعية والتضامن الاجتماعي،** وهي تمثل **استنتاجات** على مستوى عالٍ من التجريد ، ولا يمكن توصيل معناها بسهولة من خلال الإشارة إلى موضوعات معينة أو أفراد أو أحداث أو ظواهر ، ومن هنا يعتبر هذا النوع من المفهومات المجردة بمثابة أبنية فرضية ، وتعرف عملية اختصار الظواهر أو الموضوعات على هذا النحو السابق والتعبير عنها في صورة مفهومات باسم **عملية صياغة المفاهيم Conceptualization**

ولما كانت **المفهومات المجردة والأبنية الفرضية** مثل الإحباط والتضامن أكثر تعقيداً من المفهومات البسيطة ، فإن هذه المفهومات المجردة ليست في حاجة فقط إلى أن تكون محددة بعناية ، **وإنما تحتاج أيضا إلى ترجمتها إلى أحداث يمكن ملاحظتها أو مؤشرات يمكن على أساسها جمع البيانات التي تدلنا على هذه المفهومات.**

ومن ثم ظهرت الحاجة إلى وضع **نوع آخر من التعريفات لهذه المفهومات** والذي يساعد على ترجمتها إلى ملاحظات أو مؤشرات ويسهم في توحيد معانيها بين الباحثين ، وتعرف هذه العملية الأخيرة **بإسم التعريف الإجرائي للمفهومات Operational definition**

ويعتبر **" جون استيوارث دود "**هو المسئول الأول عن محاولات **إدخال هذا النوع من التعريفات الإجرائية للأبنية الفرضية إلى علم الاجتماع** في محاولة منه لاستخدام مفهومات يمكن ملاحظتها وعمليات يمكن اختبارها بحيث يمكن بناءً على ذلك استخدام المفهومات على نحو **يساعد على الوصف الموضوعي والدقيق وبطريقة قابلة للتحقيق للظواهر والأحداث التي تشير إليها هذه المفهومات،** ومن هنا تبدو أهمية المفهومات باعتبارها كلمة مختصرة ومحددة وظيفتها وصف الظواهر موضوع البحث.

غير أن هناك إلى جانب المفهوم مصطلح آخر له أهمية مساوية هو **المتغير Variable وهو بُعد يمكن قياسه للمفهوم** مثل طول أو ارتفاع الرجل أو ديمقراطية أو ديكتاتورية القيادة ، كما **يرتبط بمصطلح المتغير مفهوم آخر هو المؤشر Indicator وهو ما يدل على المتغير في الواقع وما يساعد على ربط المتغيرات بالواقع موضوع الملاحظة.**

مثال :عند الحديث عن القيادة الديمقراطية يمكننا اعتبار مؤشر المشاركة في اتخاذ القرار كافٍ للدلالة على المقصود بهذا النوع من القيادة في الواقع ، هذا من ناحية؛ ومن ناحية أخرى قد ينظر في الغالب إلى **مجموعة من المفهومات أو إلى ما يعرف بالإطار التصوري Conceptual Framework على أنها نظريات** غير أنها تمثل طريقة في الصياغة التصورية للظواهر في إطار وجهة نظر محدودة أكثر مما تعمل على تفسير العلاقات الداخلية بين هذه المفهومات.

٢- الفرض العلمي Scientific Hypothesis

أن الفرض العلمي**{ عبارة عن جملة تشتمل على أكثر من مفهوم أو هو بعبارة أدق قضية تحمل تفسيراً مبدئياً أو حلاً مقترحاً لمشكلة أو موضوع أو حدث أو ظاهرة.}** فمثلاً أن الإقلاع عن التدخين يمثل الحل المقترح لمشكلة الإصابة بسرطان الرئة أو أن التدخين يفسر لنا مبدئيا سرطان الرئة، **وهذه هي الوظيفة الأساسية للفروض ونعني التفسير المبدئي للظواهر موضوع الاهتمام.**

وقضية الفرض ذاتها تضم حدثين أو ظاهرتين أو موضوعين مثل "التدخين وسرطان الرئة "يطلق على **أحدهما(الأول)المتغير المستقل أو التجريبي Independent Variable، ويطلق على(الثاني) المتغير التابع Dependent Variable** ، وقد تكون العلاقة بين هذين المتغيرين **علاقة ارتباط أو علاقة تلازم أو علاقة** سببية ، ويحاول البحث التحقق من طبيعة هذه العلاقة التي تدلنا عليها قضية الفرض هذه.

كما **تبنى الفروض على أساس الاحتمالات أو التخمين والحدس العميق** الذي يمتاز به بعض الباحثين، وبدون الفروض قد يجد الباحث أنه من الصعب عليه للغاية أو من المجهد أو ما يضيع الوقت أن يميز بين مجموعة العوامل المتفاعلة أمامه، **فالفرض هو الذي يوجهه في عملية اختيار الحقائق المناسبة واللازمة لتفسير خضم الحقائق البعيدة عن الموضوع أو عديمة الصلة به.**

وهكذا **يختلف الفرض العلمي عن النظرية** كما يختلف الفرض **عن المفهوم** ، غير أن اختلاف **الفرض العلمي** عن **المفهوم** من حيث أن الأول **قضية** والثاني **كلمة** قد يسمح بشيء من التداخل بين قضية الفرض العلمي وبين غيره من أنواع القضايا المعروفة في العلم.

إذ هناك قضايا بديهية أو مسلمات **وهي تلك القضايا التي تدخل في بناء النظرية وينظر إليها باعتبارها نقطة انطلاق وأنها ليست في حاجة إلى برهنة، والتي يستنبط منها بقية القضايا الأخرى في النظرية طبقاً لمجموعة قواعد محددة**، ومثال ذلك قول" هربرت سبنسر "أن{ المجتمع يماثل الكائن الحي.}

٣- القانون العلمي Scientific Law

إذا كان الفرض قضية مصاغة على نحو عام قبل التحقق من الوقائع ويعالج نطاقاً ضيقاً منها، ويعُد افتراضاً أولياً يؤخذ به من أجل تفسير الحقائق التي تم ملاحظتها فقط في أثناء مرحلة الاستطلاع، **فإن القانون يعُد بمثابة قضية دقيقة تختزل سلسلة من الحقائق العلمية أو تختصرها في صيغة رياضية.**

وهذا النوع من القضايا الدقيقة والمختزلة في صيغة رياضية **لا تصل إليها إلا بعد اختبار وتحقيق وبلورة لمجموعة من الحقائق العلمية والقضايا الأخرى من نوع الفروض والتعميمات المحدودة** ولذلك يُعد القانون قضية على درجة عالية من الاحتمال **ويمكن الإفادة منه في تحقيق وظائف التوقع والتنبؤ في ميدان العلم.**

٤- النموذج العلمي Scientific Model

وتعتبر النماذج العلمية **(صياغات تصورية منسقة على نحو مبسط تضع العناصر المتشابكة في شكل إطار محدد }**، وهناك **أنواع مختلفة من أشكال هذه الأطر من بينها الإطار الشهير الذي يعرف باسم إطار الأهداف والوسائل عند" ميرتون "**وهو من أشهر الأمثلة على النماذج العلمية في علم الاجتماع.

وتعتبر **صياغة المادة العلمية في شكل رياضي هي الصياغة التصورية -أو النموذج -المفضل لدى كثير من الباحثين.** ومهما كانت الصياغة أو الشكل المختار للنماذج ، فهي **تؤدي وظائف محددة، أهمها :تقديم صور من النظريات.** مثلاً تصور نظرية علم الاجتماع باعتبارها مجموعة نماذج: **كالنموذج العضوي أو النموذج الوضعي -نموذج الصراع- نموذج العملية الخ...**

وتمكن النماذج من إدراك وبسرعة وعلى نحو شامل أنواع العلاقات بين المتغيرات التي تعبر عن النظريات. ويمكن إخضاع النتائج المشتقة من هذه التوقعات لمزيد من الفحص الشامل ، وبما أن هذه النتائج لا وجود لها يمكن صياغة إجراءات بحث وتصميمات تساعد على اشتقاقها.

كما أن النماذج تبين بوضوح حدود النظريات ونطاقها التصوري لأنها تعمل من خلال تركيز اهتمامها على الظواهر التي تشتمل عليها النظرية كما تعمل على توضيح والإجابة على السؤال **: أين تقف النظرية أو تنتهي؟** بحيث يمكن أن نستبعد من فحصنا وقائع الحياة الاجتماعية التي لا يمكن أن تنطبق عليها.

ومن ناحية أخرى قد ينظر إلى النموذج على أنه نوع من التنميط Typologyالذي يساعد على تحديد العلاقات المتداخلة بين خصائص أو ظواهر نحاول توضيحها{ مثال ذلك نموذج الأسرة النواة ونموذج المجتمع الصناعي المتقدم .} وتفتقر النماذج عموماً إلى القدرة على التفسير إذ لا يفسر نمط الأسرة النواة أي شيء داخل هذه الوحدة ، وقد يكون نموذج المجتمع الصناعي المتقدم في المستقبل مفيداً، إلا أنه لا يفسر لنا تطور أو بناء أو العمليات الداخلية في هذا المجتمع.

وهكذا يتضح أن مفهومات مثل التصور والمتغير والمؤشر والإطار التصوري والفرضي والمسلمة والقانون والنموذج ليست في حد ذاتها نظريات لأن كل مصطلح منها لا يقدم في ذاته تفسيرا للظواهر التي يشير إليها. ولأن هذه الوظيفة أي التفسير تُعد وظيفة جوهرية بالنسبة للنظرية ، وأن الخلط والتداخل بين هذه المفهومات وبين مفهوم النظرية يمكن رده إلى أن **كل هذه المصطلحات تُعد أجزاء من بناء النظرية** كما سنحاول توضيحه في تعريف النظرية في المحاضرة القادمة إن شاء الله.